

التصوير في القصص القرآني جمالياته وقيمه الفنية

الدكتور: فوزي أبوبكر العيان

كلية التربية- الجامعة الأسمرية الإسلامية

fawzayan@gmail.com

0925423723

تقديم:

إن التصوير في القصص القرآني يفوق التعبير بالمعنى الذي تؤديه الدلالة الباطنة للفظ فهو وسيلة التعبير عن أغلب المواضيع القرآنية ، فيتحقق التأثير بطريقة فنية ، فالنظرة البيانية المحدثة ، تربط إعجاز القرآن بسلطانه العجيب على القلوب ، و تأثيره الباهر على الأسماع والقلوب ، حتى ليحار الناس في تحليل هذه الظاهرة ، وفي بيان سبب هذا التأثير ، وفي تحديد مصدر هذا كله ، أهو اللفظ ؟ أهو المعنى القار فيه ؟ أم هي الصورة والإيحاءات التي تشعها ؟ أم الإيقاع القرآني الخاص ؟ أهي هذه العناصر كلها مجتمعة ؟ أم أنها هي وشيء آخر وراءها ؟

هذا يحيلنا إلى البعد التصويري في القصص القرآني ، في محاولة لطرق باب القرآن من وجهة بيانية ذوقية جمالية ، تعنى باستشعار حلاوة و عذوبة القرآن عند قراءته أو سماعه ، وتحسُّس ما يثيره فينا من متعة تداعب العقل و الوجدان معاً ، ذلك الإحساس الفياض الذي يملأ النفس بقشعريرة يعقبها سكن نفسي إنها شحنات تسري في جسم الإنسان لتنفذ عبر حواسه إلى بصيرته فتوقظ ملكاته وتستنهض فطرته السوية ، هي المتعة التي تقف عليها المعرفة ، و لاتدرك وصفها الألفاظ كل ذلك إنما وسيلته التعبير القرآني المعجز بلسان عربي مبين ، هذا التعبير الذي يعد التصوير الفني أحد أبرز طرائقه ، إذ تتحول الكلمات إلى صور نابضة بالحياة و الحركة ، يتمثلها الخيال ، و تتحسسها الحواس ، فيحدث الإيحاء وبالتالي التأثير العجيب .

كل ماتقدم ذكره كان مغريا لي للبحث في هذا المنحى ، علاوة على وجه التفرد الذي استقل به القصص القرآني ، وهو مواعته بين القيم الفنية والأغراض الدينية ، فقد اتخذ من قيم الجمال الفني أداة طيعة في التأثير النفسي والوجداني ، فيستهدف بالخطاب الفني والجمالي دخيلة المتلقي وميله الذاتي للقيم الدينية .

ولا يخفى لدى الرائي ما يمثله الدين والفن من أصالة وعمق في دخيلة النفس الإنسانية (ولا شك أن صفاء النفس مدعاة طبيعية لحسن التلقي لمجال الدين والفن)⁽¹⁾

(1) قطب - محمد القصص في القرآن . مقاصد الدين وقيم الفن ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، د ط ، القاهرة ، سنة 2002 م . ص 33 .

ولعل أبرز القيم الفنية والجمالية التي تفرد القصص القرآني بها ظاهرة التصوير بالإيحاء والرسم بالكلمات وتفجير طاقات الألفاظ لرسم صور مبدعة ومشاهد شاخصة تبهر المتلقي وتأسره.

طاقات الإيحاء والتصوير في القصة القرآنية:

ظاهرة التصوير في القصة القرآنية ظاهرة تجعل العمل القصصي أداة فعالة في التأثير على المستمع أو القارئ ، لأنها تنشئ علاقة إيجابية بين العمل القصصي والمتلقي لهذا العمل نتيجة للحركة الحية النابعة من عملية التصوير ، والذي يشيع جواً من الحياة في ثنايا القصة بحيث يحيل المستمعين والقراء إلى جماعة من النظارة الذين ينشغلون بتلمي ما يعرض أمامهم من مشاهد وحركات ، فينسون أنهم أمام كلام يتلى ، بل يتخيلون ذلك المنظر الذي يعرض حيث الألسنة التي تتحرك تفيض بما تفيض به من أحاسيس ، فهي إذاً الحياة بقضيتها وقضيضها وليست حكاية لتلك الحياة ، ذلك لأن عملية التصوير البياني تستهدف جانب التصور والتخيل لدى المتلقي ، حيث يترجم ما يسمعه أو يقرؤه من سرد قصصي إلى صور وأحيلة تكون شاخصة بكل أبعادها في مدركاته الذهنية ، ويمكننا أن نقسم التصوير في القصة القرآنية إلى ثلاثة أنواع وهي :

1- تصوير المشاهد والمواقف:

وهذا النوع من التصوير أكثر أنواع التصوير شيوعاً في القصص القرآني ، وهو الغالب على أنواع التصوير ، إذ نجد القصص القرآني يحفل بعروض حية لكثير من المشاهد ، بحيث تبدو كأنها تمثل أماننا واقعاً ملموساً تراه العين ويسبح فيه الحس والخيال ، والأمثلة على هذا النوع متعددة ، ولكن نكتفي هنا بعرض بعضها على سبيل الاستشهاد والتمثيل ، قال تعالى : { حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ، وَقَالَ ابْكُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِّبَهَا مُرْسَاهَا إِنْ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ، وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ، قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ، وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ اقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }⁽¹⁾ .

نرى في هذه الآيات الكريمة تلك الصورة الكلية والتي تمثل ما يطلق عليه بلغة السينما مصطلح بانوراما **Panorama** لتلك الأحداث الجسام في مشهد كلي يأخذ بمجامع الصورة العامة لما حدث ، مستنداً إلى روعة التصوير والوصف الشامل الدقيق إلى حد يجعل منها لوحة تموج بالحركة ؛ ويمكننا أن نقسم الآيات السابقة إلى ثلاثة مشاهد هي : **المشهد الأول** : - يصور فيه سبحانه وتعالى بدء نزول العذاب بأن فار التنور ؛ وقد اختلف العلماء في قوله تعالى : { وَفَارَ التَّنُّورُ } قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : يعني طلع الفجر ، ونور الصباح ، وقال ابن عباس انبجس الماء من وجه الأرض ، والعرب تسمي وجه الأرض تنوراً ، وقال قتادة : التنور أشرف موضع في الأرض وأعلى

(1) سورة هود ، الآيات : 40 . 44 .

مكان منها ، وقال الحسن: أراد بالتنور الذي يخبز فيه ، وكان تنوراً من حجارة ، وكان لآدم ثم انتقل إلى نوح فعلمت به امرأته فأخبرته ، واختلفوا في موضعه فقال مجاهد كان في ناحية الكوفة⁽²⁾ . ويرى محمد الشعراوي أن المقصود بقوله { وَفَارَ التَّنُّورُ } أي غلي ، واشتدت حرارته ، وهذه إشارة وعلامة بين الله تعالى ونوح عليه السلام وحتى قبلها تفيد الغاية⁽³⁾ .

ولكن الإمام محمداً أبا زهرة يذهب مذهباً عجيباً في قوله تعالى { وَفَارَ التَّنُّورُ } يقول : (ثم ترى الإيذان بالابتعاد عن موطن الغرق ، وقد فار التنور، وإني قد أدرك من هذا أنها كانت تسير بالبخار إذ فار التنور فتحركت بعد أن فار والله أعلم بمراحه ، وإن كان اللفظ دالاً، بل هو مصور لتنور فار فحرك ببخاره ما حرك من آلات تسير السفينة)⁽⁴⁾ .

وفي هذا المقام نرى أن فوران التنور قد قصد به تفجراً للأرض بالماء وعلى ذلك نستأنس بدليلين :

أحدهما : ما هو متعارف عليه عند العرب من إطلاقهم لاسم التنور على وجه الأرض وعلى كل مفجر ماء⁽¹⁾ ثانيهما : الدليل القرآني في قوله تعالى في سورة القمر : { وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ }⁽²⁾ ، وذلك في قصة نوح التي تناولتها هذه السورة . فالتنور إذا ليس تنور السفينة . كما يرى الإمام أبو زهرة . بل وجه الأرض ، أما قوله بقوة البخار فهو أمر مستبعد ، لأن السفينة قد رست بسلام فيما بعد ، وبجميع مكوناتها ، وإذا كانت تسير بقوة البخار لغدت ثورة واكتشافاً جديداً يستحق التخليد ولاستفاد منها الإنسان القديم فيما بعد وهذا لم يحدث . بالإضافة إلى أن السفينة محاطة بعناية إلهية فلا حاجة للبخار أو غيره في تسييرها فبسم الله مجراها ومرساها .

ويأتي الأمر الإلهي بنيه نوحاً في هذا المشهد بأن يحمل على متن السفينة من كل زوجين وأن يحمل معه أهله باستثناء من حق عليه القول ، وبمضي الذكر الحكيم إلى أن الذين آمنوا واستجابوا لدعوة نوح قلة قليلة ، وفي ذلك إشارة خاطفة إلى أنهم على الرغم من دعوة نوح لهم وطول حوارهم ، ومكابدته في سبيل دعوتهم إلى التوحيد ، كما جاء على لسان نوح : { ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَاراً ، ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً }⁽³⁾ . فقد أصروا على العناد والكفر فكان مبرراً كافياً لأن يستحقوا من الله كل هذا العذاب نكالاً بهم جزاءً وفاقاً ؛ قال ابن عباس رضي الله عنه : آمن من قومه ثمانون إنساناً ، منهم ثلاث من بنيه (سام وحام ويافت) وثلاثة كنانين له ، ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية وهي اليوم تدعى قرية الثمانين بناحية الموصل⁽⁴⁾ .

(2) ينظر : الثعلبي النيسابوري ، أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم ، قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس ، المكتبة الثقافية ، بيروت - لبنان

، د ط د.ت . ص 48

(3) ينظر : الشعراوي ، محمد متولي ، قصص الأنبياء والمرسلين ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة - مصر ، د ط ، د.ت ، ص 55-56 .

(4) أبو زهرة ، محمد ، المعجزة الكبرى : القرآن ، دار الفكر العربي ، بيروت ، د ط ، د.ت ، ص 194 .

(1) لسان العرب مادة ت. ن. ر ، ص 333 ، المجلد الأول .

(2) سورة القمر ، الآية 12 .

(3) سورة نوح ، الآيتين : 8 ، 9 .

(4) ينظر عبد العظيم ، سعيد ، قصص الأنبياء عظات وعبر ، دار العقيدة للتراث ، القاهرة ، ط 1 ، 2001 م ، ص 51

ورب سائل يسأل : لماذا يستمر هذا النبي الكريم كل هذه الآماد الطويلة وي بذل هذه الجهود الكبيرة دون كلل أو ملل ؟ !! وهل دعوة التوحيد تستحق كل هذه العناية والإكبار؟⁽⁵⁾، والجواب : أن سمو الغاية وراء هذه المكابدة والجهاد يعطي مسوغاً كافياً لبذل المزيد من التضحيات ولا سيما إذا كانت تلك الغاية هي محو الشرك والقضاء على رموز الظلال ونشر التوحيد .

المشهد الثاني : نرى صورة السفينة وهي تمخر عباب الماء محاطة بعناية الله ورعايته وهو مشهد يموج بالحركة والتموج ، إذ نرى فيه الموح الذي شبهه الله بالجمال تهويلاً لأمره وتعظيماً لشأنه ، وفي تلك الأثناء يلوح لنا ابن نوح⁽⁶⁾ وهو يغالب الأمواج ويصارعها وهو في معزل عن السفينة وأبيه ؛ وتجري محاوره بين الأب وابنه في لحظات عصيبة يحاول الأب بدافع الشفقة والحنان الأبوي أن يبقى على ولده وذلك بدعوته إلى الإيمان ونبذ الكفر⁽⁷⁾ ، ولكن دون جدوى فالله قد ختم على قلبه بالكفر بعد أن حق عليه القول فيبادره بالإجابة بأنه سيأوي إلى عاصم يعصمه من هذا الطوفان المهيّب ، فيرد عليه الأب بقوله { لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } وبعد هذه المحاوره المقتضبة يحول الموح بعنفوانه بين الأب وابنه الذي كان قدره أن يموت غرقاً (لذا فقد تكافأ العجز في الطبيعة والإنسان ، وهذا التكافؤ تأكيد وترسيخ للقدرة الإلهية والعظمة الربانية)⁽¹⁾ .

المشهد الثالث : ويتمثل في بداية الانفراج للأزمة بعد أن بلغت من التعقيد والتصاعد حداً جعل معه القصة تصل إلى ذروتها ، إذ نرى في بداية هذا المشهد الأمر الإلهي والذي يقول للشيء كن فيكون ، يصدر أمراً للأرض وللسماء في يسر وسلاسة يصل في ألفاظه حد الإعجاز فالأمر الأول للأرض ببلع تلك المياه ، ولا تخفى هنا دقة التصوير واختيار الألفاظ التي تقوم عليه (فاختيار البلع دون غيره لأنه تتحقق به سرعة الجفاف بقوة تساوي قوة الانبحاس، وكذا الحال مع { أقلعي } ، فهو أمر دل على سرعة انقشاع السحب دفعة واحدة ومن ثم توقف المطر)⁽²⁾ ألسنت معي أن هذه الآية لو فُتشت كلام العرب والعجم لما وجد فيه مثلها على حسن نظمها ، وبلاغة وصفها واشتمال المعاني فيها . ولعلنا نرى من تشابك المشاهد الثلاثة ، بشكل يبرز الصورة الكلية لتلك الأحداث المهيبة العظيمة ، ما يكون صورة أمام المتلقي فيرسمها بالألفاظ التي عبرت بإتقان تام عن المقصود .

⁽⁵⁾ ينظر : المدخلي ، ربيع بن هادي ، منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله ، دار العصر للطباعة ، مصر 2000 م ص 53.

⁽⁶⁾ هذا الابن هو (يام) أخو حام وسام ويافث ، وقيل اسمه كنعان ، وكان كافراً ، عمل عملاً غير صالح ، فخالف أباه في دينه فهلك مع من هلك . للمزيد عنه ينظر : ابن كثير ، قصص الأنبياء ، ص 81 .

⁽⁷⁾ ينظر : جاد المولى ، محمد أحمد ، قصص القرآن ، دار القلم العربي ، حلب - سوريا ، ط2 ، سنة 1993 م .. ص 24

⁽¹⁾ قطب ، محمد ، القصة في القرآن . مقاصد الدين وقيم الفن ، ص 38 .

⁽²⁾ الطبري ، محمد بن جرير أبو جعفر ، قصص الأنبياء ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 1989م ، ص 92

قصة أخرى ظهر فيها التصوير وهو يبلغ حداً معجزاً في تشخيص الواقع ، تلك هي قصة أصحاب الكهف في سورة الكهف قال تعالى: { أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ⁽³⁾ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ، إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ، ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ، هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، وَإِذْ اغْتَرَفْتُمُوهُمْ وَمَا يُغْنِي عَنْهُمْ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلَمْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ، وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ ثِيَابًا وَجَعَلْنَا لِمَنْ لَبِثَ لَيْسًا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ، إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ، وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمُ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ، سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَنَفِثْ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ، وَلَا تَقُولَنَّ لِيْ شَيْءٌ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ، قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا }⁽¹⁾ .

تلك هي قصة أصحاب الكهف كما جاء بها الذكر الحكيم ، حيث نرى أن لها مشاهد جليلة تبدو كأنها ماثلة للعيان ، في مشاهد مصورة تأخذ بمجامع تلك الصورة في أسلوب قصصي قرآني غاية في الدقة والإتقان ، يؤخذ عنه مغزى القصة في غير التباس أو ارتياب .

ويمكننا أن نقسم القصة إلى أربعة مشاهد تكون في مجملها تلك الصورة الكلية لقصة أصحاب الكهف:

(3) الرقيم قيل هما لوحان من نحاس مرقوم مكتوب فيهما أمر الفتية وأمر إسلامهم ما أراد منهم دوقيانوس الملك وكيف كان أمرهم ومالهم ، وقيل الرقيم اسم الوادي الذي كان فيه الكهف ، وقيل هي القرية التي خرجوا منها ، للمزيد ينظر : النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين ، ص 502 ، نعمة الله الجزائري ، ويقال إن الرقيم قرية من قرى الأردن تسمى الرجيب وهي موجودة إلى يومنا هذا ، للمزيد ينظر : ضبيان ، محمد تيسير ، موقع أصحاب الكهف وظهور المعجزة القرآنية الكبرى ص 33 .

(1) سورة الكهف ، الآيات : 26 . 9 .

المشهد الأول : رأينا فيه الفتية وقد اعتزلوا قومهم ، (لأن العزلة عن غير الله توجبه الوصلة بالله ، بل لا تحصل الوصلة بالله إلا بعد العزلة عن غير الله)⁽²⁾ ، وآووا إلى الكهف واختاروا مستقراً واعتصموا بالوحدانية والإيمان برهم ، بعيداً عن الوثنية وركامها ، ويهجرون ديارهم ، ويفارقون أهلهم ، ويتجردون من زينة الأرض ومتاع الحياة ، هؤلاء الذين يأوون إلى الكهف الضيق الخشن المظلم ، يستروحون رحمة الله ، ويحسون هذه الرحمة ظليلة فسيحة ممتدة { ينشر لكم ربكم من رحمته } ولفظ { ينشر } يلقي ظلال السعة والبحبوحة والانفساح ، فإذا الكهف فسيح رحيب وسيع تنتشر فيه الرحمة وتتسع خيوطها ، وتمتد ظلالها ، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء ، إن الحدود الضيقة لتتراح ، وإن الجدران الصلدة لتترق ، وإن الوحشة الموغلة لتشف ، فإذا الرحمة والرفق والراحة والارتفاق ، فهم بذلك على بعد حسي بينهم وبين أصحاب تلك العقائد الوثنية وظلم أهلها ، فلا يرونهم ولا يسمعون عنهم ، وضرب الله على آذانهم وأمدهم بالسكينة والإيمان ، فصاروا في غيبوبة كأهم الموتى ، تلك صورة من التصوير القصصي يدركها المتدبر للقرآن فتتمثل أمامه كأنه يرى هؤلاء الفتية ويثقفهم بحواسه ، ويحسبهم أيقاظاً وهم رقود وهم يهرعون إلى الكهف ويأوون إليه راجين الرحمة والرشاد ، مبتعدين عن الآثام وما في الدنيا وقد زادهم الله تعالى هدى ، فجعلهم رقوداً ، وهنا نرى تلك الصورة واضحة وهي أن أناساً يظن أنهم أيقاظ وهم رقود وقد بقوا على ذلك سنين عدداً تجاوزت ثلاثمائة سنة⁽³⁾ .

المشهد الثاني : رأينا فيه الرجال وهم رقود ، وتجسداً لصورتهم فهم يتجهون فيه ناحية الشمال وتطلع الشمس عليهم من الشرق يمينا ، وتطلع عليهم قبل غروبها ذات الشمال ، وهم في فجوة من ذلك الكهف ؛ والشمس والهواء من البحر يأتي إليهم فينعشهم نسيمه العليل ، ويمدهم بأسباب الحياة الطيبة وهم في سباتهم⁽¹⁾ ، ومن هنا نرى التصوير القرآني قد ركز كثيراً . في هذا المشهد . على الوصف الدقيق للمكان الذي نزلوا به كما يعرضها شريط سينمائي متحرك ، فكأن القارئ للقرآن يشاهد ذلك المكان ويعاينه ؛ ويرى سعيد عبد العظيم (أن الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم ، وإذا غربت تقرضهم أي يصيبهم منها يسير ، فكان في مسها لهم بالعشي إصلاح لأجسادهم ، والمقصود بيان حفظهم عن تطرق البلاء وتغير الأبدان والألوان إليهم والتأذي بحر أو برد)⁽²⁾ ، في حين نرى قول ابن عباس بأنهم (لا تصيبهم الشمس البتة كرامة لهم يعني أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين . أي يمين الكهف . وإذا غربت تمر بهم ذات الشمال . أي شمال الكهف . فلا تصيبهم في ابتداء النهار ولا في آخر النهار . فكانت الشمس تميل عنهم طالعة وغاربة ، وجارية لا تبلغهم لتؤذيهم بحرهما وتغير ألوانهم وتبلي ثيابهم)⁽³⁾ .

⁽²⁾ القشيري ، لطائف الإشارات ، تحقيق : إبراهيم بيومي ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، د ط ، د.ت ، مج 4 ، ص

⁽³⁾ ينظر : أبو زهرة ، محمد المعجزة الكبرى : القرآن ، ص 197 .

⁽¹⁾ ينظر المصدر السابق ، ص 198 .

⁽²⁾ عبد العظيم ، سعيد ، قصص القرآن عظات وعبر ، ص 19.

⁽³⁾ نفسه والصفحة ذاتها .

ولعل قول ابن عباس هو الأقرب ، لوضوح المعنى العام للآية ، واستناداً إلى المعنى اللغوي اللفظي (تزاور) و (تقرضهم) ، فمن معاني الأولى العدول والانحراف⁽⁴⁾ وفي الثانية التخالف والتجاوز⁽⁵⁾ ، ففي كلا المعنيين عدم مباشرة ، أي عدم مباشرة الشمس لأجسادهم علاوة على أنها إذا باشرتهم سوف تؤدي إلى بلي ثيابهم وأجسادهم أو تغير لوها وهذا ما لم يحدث .

ويعضى الذكر الحكيم في بيان حالهم فيقول تعالى: { وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ } فهم كالأحياء في تقلبهم بإرادة الله جل وعلا (وقد أخبر سبحانه عن حسن إيوائه لهم ، فلا كشفقة الأمهات بل أتم ، ولا كرحمة الآباء بل أعز . . .)⁽⁶⁾ ، ولا يترك الذكر الحكيم جزئية تدخل في تكوين الصورة الكلية لأصحاب الكهف وحالهم إلا وصفها بدقة متناهية تبهر المتلقي، فهو يذكر صورة الكلب الذي يحرسهم ، ويصوره بأنه { بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ } كالحارس الأمين ، فلم يكتف بأنه يحرسهم وحسب ، بل وصفه بأنه باسط ذراعيه وذلك مما يستحضر في ذهن المتلقي صورة ذلك الكلب وهو في حراسة هؤلاء الفتية في وضع مألوف لكلاب الحراسة؛ ولذلك فالتصوير القصصي شامل (يرى فيه القاريء صورة المكان وكأنها مصورة بصورة باهرة ، وليست كلاماً متلوّاً)⁽⁷⁾ ، ولا غرابة في ذلك فهو تنزيل من حكيم حميد . فوصف المكان له هيبه ، وما هم عليه يبعث في النفس الرهبة ، فإنك لو اطلعت على حالهم تلك . مهما بلغت من الجرأة والشجاعة لوليت منهم فراراً ، ولامتلاً قلبك رعباً .

المشهد الثالث : رأينا فيه هؤلاء الفتية يبعثون من جديد ، وقد اختلف الناس في الفترة التي بقوا أثناءها في الكهف ، فهي قد استغرقت أزماناً وأجيالاً بكاملها ، ولكن القرآن يبين أنها تسع سنوات بعد الثلاثمائة ، ونرى في هذا المشهد إيراد تفصيل بعد الإجمال الذي رأيناه في المشهد الأول ؛ فبعد ذلك السبات العميق قاموا وهم يرددون إيمانهم بالله تعالى ، وما كان أقوامهم عليه { هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ }⁽¹⁾ ، فنبذوا ما يعبدون من دون الله ، فرى الصورة القصصية واضحة تصور الملاحاة بينهم وبين أقوامهم حتى اعتزلوهم معتممين برهم وفي نهاية هذا المشهد يصور الكهف ومن فيه في وضوح تام على النمط القرآني البديع⁽²⁾ .

المشهد الرابع : رأينا فيه هؤلاء الفتية بدء استيقاظهم من سباتهم العميق وقد وجدوا هرج الحياة ومرجها ، فسألوا أنفسهم كم لبثوا في منامهم ، فردوا في شبه إجماع بأنهم قد ناموا يوماً أو بعض يوم ، كأنهم أدركوا أن المدة كانت أطول فقالوا : { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ } فرجوع الحياة إليهم جعلهم يفكرون في جلب رزق لهم ومعهم نقود ؛ صكت من تسع

(4) ابن منظور ، لسان العرب مادة زور المجلد الثاني ، ص 62 .

(5) نفسه مادة ق ر ض ، المجلد الثالث ، ص 60 .

(6) القشيري ، لطائف الإشارات ، مج 4 ، ص 56 .

(7) أبو زهرة ، محمد ، المعجزة الكبرى : القرآن ، ص 198 .

(1) سورة الكهف ، الآية 15 .

(2) ينظر : أبو زهرة ، محمد ، المعجزة الكبرى : القرآن ، ص 198 .

وثلاثمائة سنة ، وفيها يكمن السر في تعرف الناس عليهم ، والكشف عن حقيقتهم وما ذلك إلا إلهام رباني ليبين للناس أن الساعة حق ، والبعث والنشور حق لا ريب فيه ، لذا قال تعالى : { وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيُغْلَبُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رُبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا }⁽³⁾ .

ثانياً / تصوير الانفعالات والعواطف :-

ويكمن هذا التصوير في تجلي هذه الصورة وتلك العواطف من خلال سلوك الشخصية ومواقفها من الأشياء وفي كيفية مواجهتها للأحداث بشكل يكشف لنا موقف الشخصية وتصرفها عما يدور بداخلها من مشاعر وانفعالات ولنا مثل من قصة موسى ، حال أمه بعدما ألقته في اليم ، وما جاء في شأها ، قال تعالى : { وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا زَادُوهُ إِبْرَاهِيمَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ، فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ، وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، وَخَرَّعْنَاهُ عَلَيْهِ الْمَرَضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ، فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }⁽⁴⁾ .

هذه وقفة مع أم موسى وقد ألفت فلذة كبدها في اليم ، وهي باكية حزينة على مصير وليدها الحبيب ، فقد اجتمع خوفان في قلبها : خوف من مصيره المحتوم إما بالموت غرقاً أو بالقتل الذي توعد به فرعون كل صبي يولد لبني إسرائيل . هنا عواطف مختلفة مرت بها الأم وهي مزيج من الخوف والقلق والاضطراب من جهة ، ثم الشعور بالاطمئنان المبشر بالراحة والطمأنينة ، فالوليد الملقى سيعود إليها ، وسيحظى بالرسالة ، وهذا ما يزرع بذور الأمل في قلب الأم ويخفف من قلقها وخوفها⁽¹⁾ . والتعبير بـ (إذا) في قوله تعالى { فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ } يدل على تحقق خوفها ، وفي الخطاب لطف ومؤانسة لأم موسى لذا فقد عبر بالإلقاء دون غيره كالقذف مثلاً ، لأن الإلقاء دون القذف في الشدة والقوة⁽²⁾ .

ومن قوله تعالى { فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ } الأمر هنا مختلف ، فقد تضمن أمراً إلهياً بأنها إذا خافت عليه لا بد أن تلقيه في اليم ، وهذا عكس الطبيعة البشرية ، لأن سبب الإلقاء خفي لا يعلمه إلا الله ، والظاهر للجميع من الإلقاء في اليم هو نهاية محققة ، ولكنها في الواقع رعاية إلهية تحيط بالوليد وهذا . في رأيي . ينطبق عليه ما يسمى (

(3) سورة الكهف ، الآية 21 .

(4) سورة القصص ، الآيات : 13 ، 7 .

(1) ينظر : قطب ، محمد ، القصة في القرآن . مقاصد الدين وقيم الفن ، ص 45 .

(2) ينظر : عباس ، فضل حسن ، قصص القرآن الكريم . صدق حدث وسمو هدف وإرهاق حس وتهذيب نفس ، دار الفرقان ، عمان - الأردن ، ط 1 ، 2000م ، ص 487 ، .

بالمفارقة⁽³⁾ . ولذلك عبر القرآن بقوله تعالى : { وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } .

وفيه يقول الزمخشري : ({ فارغاً } صفرًا من العقل ، والمعنى : أنها حين سمعت وقوعه في يد فرعون طار عقلها لما دهمها من فرط الجزع والدهش ، ويجوز وأصبح فؤادها فارغاً من الهم حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه⁽⁴⁾ . ولكنني أرى في هذا التعبير { فارغاً } بعداً آخر للمعنى ووصفاً أميناً لحال أم موسى حال فقد وليدها ، فقد أصبح فؤادها فارغاً ، وفي ذلك تصوير وتجسيم لعاطفة الأمومة لديها . فكأن فؤاد أم موسى وعاءً يملأ ويفرغ من محتواه ، وكأن حبها لوليدها هو كل شيء يشغل فؤادها فقد بلغ من القدر الذي لا يشاركه شيء في ملئه ، وعندما فقدته أصبح فؤادها فارغاً من كل عاطفة أو أي شيء آخر وما ذلك إلا تصوير لشدة تعلقها به ، وقوة عاطفة الحب من الأم لوليدها ، فهو أمر معنوي ولكن التعبير القرآني صيِّره وشبهه بشيء تقع عليه الحاسة ، وهو الوعاء الذي يملأ ويفرغ ، ولا يخفى الدور الذي تؤديه في إبراز الصورة المعنوية .

وتدخل الإرادة الإلهية نراه ثانية في قوله تعالى : { إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } ففي هذا المعنى يقول ابن كثير : (قال ابن عباس وغيره : { إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ } أي لتظهر أمره وتسأل عنه جهرة { لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا } أي صبرناها وثبتناها⁽⁵⁾ .

ويرى الدكتور عبد العظيم المطعني أن مادة (ر ب ط) (لم تستعمل في القرآن إلا في مقام الفضل والنبيل والمدح والثناء ، والقوة والطهر ، وكل هذه معانٍ شريفة ، وخصال حميدة ويكون فاعله هو الله جل وعلا⁽⁶⁾ . وقد جعل الربط على قلب أم موسى سبباً في الثبات على الإيمان⁽¹⁾ . (وهو فعل على عكس فعلي طبع وختم اللذين يأتيان في مواضع الدم، في حين أن ربط يكون في مجال المدح⁽²⁾ .

وعندما نمنع النظر في هذا التعبير (ربط) نرى فيه تصويراً دقيقاً ، وتجسيماً لحال أم موسى وما كانت عليه إذ من فرط شوقها لوليدها وانشغالها به ، وتلهفها لسماع ومعرفة ما آل إليه أمره ، بلغ بها الشوق حداً كادت عنده أن تفضي بسرها ، وتخرج باحثة عنه ، ولكن الإرادة الإلهية تولت كبح جماح هذه العاطفة وردّها إلى قوقعتها ، والربط عليها ربطاً محكماً ، ولا يخفى على المتلقي نقل الانفعالات والعواطف والأشياء المعنوية إلى أشياء حسية يقوى بها التمثيل وتتضح بها الصورة جيداً ، فتدخل الإرادة الإلهية في أمر أم موسى وكفها عن الاستجابة للعاطفة لئلاً تبوح بسرّها ، فمثل ذلك

(3) المفارقة : إثبات لقول يتناقض مع الرأي الشائع في موضوع ما بالاستناد إلى اعتبار خفي على هذا الرأي العام حتى وقت الإثبات . للمزيد عنها ينظر : المهندس ، كامل ، وغيره ، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، ص 376 .

(4) الزمخشري ، جار الله أبو القاسم ، الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ج 3 ، ص 167 .

(5) ابن كثير ، قصص الأنبياء ، ص 268 .

(6) المطعني ، عبد العظيم إبراهيم محمد ، دراسات جديدة في إعجاز القرآن ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط 1 ، 1996 م ، ص 187 .

(1) ينظر : المصدر السابق ، ص 187 .

(2) المطعني ، عبد العظيم إبراهيم محمد ، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، مكتبة وهبة القاهرة الطبعة الأولى ، 1996 م ، ج 2 ص 304 .

بعملية الربط المحكم على الشيء حتى يحتفظ بما يحتويه ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أن الربط المعنوي على قلب أم موسى ما كان لولا وجود العاطفة المتهيج ، فعملية الربط إذاً لم تكن لولا وجود ما يستحق أن يربط . وهكذا نرى قصة موسى وميلاده مفعمة بالعواطف البشرية بين خوف ورجاء وأمل ، مما يجعلها أكثر تأثيراً فهي تجعلنا نقف أمام أم مضطربة خائفة إلى درجة أنها كادت تبدي أمرها ولكن وليدها يمتنع عن المراضع ، وتحقق معجزة رده إلى أمه ، بعد ما يئست من رؤيته في جو مفعم بالأمل بعد الحرمان⁽³⁾ ، والقرآن صورها بصور بلغت حد الإعجاز ، واكتمل في هذا المشهد كل جوانب الصورة الإبداعية ، المصوغ في قصة قد تعددت شخصياتها ، وتنوعت مشاعرها واختلط فيها السرد بالحوار ، والأمر بالاستغاثة ، والتشوق بالأمل ، والوعد بالتحقيق ، والخوف بالاطمئنان (وقد تضمنت القصة قدراً من الصراع الدرامي ، وهو صراع نفسي في المقام الأول ، لأنه يرتبط بداخل الذات ومكامن مشاعرها ، مما يؤدي إلى انطلاق الخيال والانفعالات من سيطرة العقل والبعد عن منطق الواقع والاعتماد على التهويل والمبالغة ، وهو انفعال مصاحب للصراع في مجال العاطفة والوجدان)⁽⁴⁾ .

ثالثاً / التصوير بالإيقاع⁽⁵⁾ والجرس (الإيقاع الصوتي)

يشترك الصوت في الدلالة على المعنى ، وقد شغلت هذه القضية الباحثين في اللغات الإنسانية وفي مختلف الثقافات منذ القدم إلى يومنا هذا ، ولم يضعوا بعد شروطاً كافية في حصر رمزية الصوت ، وإنما بقيت شروطها ذوقية ، وما يهمننا في هذه الوقفة هو التصوير بالإيقاع والجرس في بعض ألفاظ القصص القرآني ونترك ما عدا ذلك لغيرنا ؛ ولعلنا نجد أن التصوير يسهم من خلال البنية الإيقاعية للكلمة وما تحمله من تناوب بين حروفها ، ومدى انسجام إيقاعها في رسم المشهد المصور في القصة القرآنية ، ومن ذلك ما جاء تعقيباً على قصة إبراهيم عليه السلام ، قال تعالى : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ، قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ ، قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ، قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ، وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْعَاوِينَ ، وَقِيلَ لَهُمْ أَأَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ فَكَبُّوا فِيهَا هُمْ وَالْعَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ }⁽¹⁾

فلفظ { كَبُّوا } في الآية الأخيرة قد أتى على وتيرة إيقاعية متسقة تماماً مع الجانب التخيلي للفعل ولا يخفى عن المتلقي الجمال الإيقاعي لهذه الكلمة ، والصورة التي تتكون عنها إيقاع اللفظ وحده كافٍ لأنه يعبر عن حال هؤلاء العصاة ، فالتناوب الذي نراه بين حرفي الكاف والباء في الفعل { كَبُّوا } كأنني به يمثل بإيمائه الصوتي حال هؤلاء

(3) ينظر : أبو زهرة ، محمد ، المعجزة الكبرى : القرآن ، ص 188 .

(4) قطب ، محمد ، القصة في القرآن . مقاصد الدين وقيم الفن ، ص 47 .

(5) الإيقاع :- الكلمة مشتقة أصلاً من اليونانية ، بمعنى الجريان أو التدفق ، والمقصود به عامةً هو التواتر المتتابع بين حالي الصوت والصمت فهو يمثل العلاقة بين الجزء والجزء الآخر ، وبين الجزء وكل الأجزاء الأخرى للأثر الفني أو الأدبي ، ويكون ذلك في قالب متحرك ومنظم في الأسلوب الأدبي أو الشكل الفني . للمزيد عنه ينظر : المهندس ، كامل ، وآخرون ، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، ص 71 .

(1) سورة الشعراء ، الآيات : 69 . 95 .

العصاة وهم يؤخذون عنوة إلى جهنم ويكبون على وجوههم فيها ، وكأن هذا التناوب بين الحروف يمثل حالهم تمام التمثيل فالذي يؤخذ عنوة ويكب على وجهه . رغم أنه . هو عندئذ يسقط ويقوم ويسقط ويقوم ، فهذه الحال التي عليها أصبحت واضحة المعالم من خلال البنية الإيقاعية التي مثلت المشهد أتم تمثيل .

وكذا الحال نراه في قصة المسلمين عندما استنفروا للجهاد في غزوة تبوك ، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ ائْفُزُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ، إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }⁽²⁾ ، وقد بين السيوطي رحمه الله أسباب نزول هاتين الآيتين فقال : (أخرج ابن جرير عن مجاهد في هذه الآية قال هذا حين أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح وحين ، أمرهم بالنفير في الصيف حين طابت الثمار واشتهوا الظلال وشق عليهم المخرج)⁽³⁾ فهذا التباطؤ الذي كان من شأن المسلمين عند استنفارهم للقتال في سبيل الله جاء وصفه بصورة دقيقة غاية في التمثيل بإيقاع اللفظ { أَنْتَقَلْتُمْ } ، ولا يخفى مدى التناغم الذي كان بين إيقاع هذا الفعل ، وحال المسلمين الذين استنفروا ولا رغبة لديهم في النهوض والنفور ، فكأن ميلهم هذا صار ثقلاً شديداً بهم ، فحال دون استنفارهم ، ولعل التشديد الذي كان في حرف الناء والتناوب بين الحركة والسكون في إيقاع بقية الفعل دلّ على مدى التصاقهم بالأرض ، وعدم الاستجابة منهم لطلب الجهاد ، أو على التردد الذي كان يعتريهم بين النهوض والنفور وبين التثاقل والالتصاق بالأرض وعدم الاستجابة ، وهكذا نرى أن إيقاع اللفظ كان غاية في الدقة والتصوير ، ونقل صورة صادقة دقيقة تسهم في تصوير ما كان من حال هؤلاء المتباطئين المتقاعسين⁽⁴⁾ ، فهذه الكلمة مثقلة بالإحياء والجرس الصوتي لها يوحى بحمل الثقل ففيها طناً على الأقل من الأثقال ! ولو أنك قلت : تفاقلتم ، لحف الجرس ولضاع الأثر المنشود ، ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ ، واستقل برسمها .

وفي الموضوع ذاته تدور الآيات الكريمة التالية قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ ائْفِرُوا جَمِيعاً ، وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً ، وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً }⁽¹⁾ ، وشاهدنا من هذه الآيات فعل { لَيُبَطِّئَنَّ } وفيه يقول ابن كثير : ({ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ } قال مجاهد وغير واحد ، نزلت في

(2) سورة التوبة ، الآيتين : 38 ، 39 .

(3) لباب النقول في أسباب النزول ، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، الطبعة الثانية ، 1388 هـ - 1969 م ص 296 ، 297 .

(4) جاء في الكشف عند تفسيره لقوله { اتاقلتم } تفاقلتم وبه قرأ الأعمش : أي تباطأتم وتقااعستم ، وضمن معنى الميل والإخلاء فعدى بـ (إلى) ، والمعنى : ملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه ونحوه . أخلد إلى الأرض واتبع هواه . وقيل ملتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم ، وقرئ اتاقلتم على الاستفهام الذي معناه الإنكار والتوبيخ ... وكان ذلك في غزوة تبوك في عشر بعد رجوعهم من الطائف استنفروا في وقت عسرة وقحط وقيط مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق عليهم . للمزيد ينظر : الزمخشري ، جار الله ، الكشف عن حقائق التنزيل ، ص 189 ، 190 ، ج 2 ، وكذا ابن كثير ، تفسير القرآن لعظيم ، ص 33 ، 34 ، ج 4 .

(1) سورة النساء ، الآيات : 71 . 73 .

المنافقين، وقال مقاتل بن حيان { لَيَبْطِئَنَّ } أي ليتخلفن عن الجهاد ، ويحتمل أن يكون المراد أنه يتباطأ هو في نفسه ويبطئ غيره عن الجهاد ، كما قال عبد الله بن أبي بن سلول . قبحه الله . يفعل، يتأخر عن الجهاد ويشبط الناس عن الخروج فيه (2) .

تلك إذا آيات نزلت في قصة المنافقين وحالهم ، وقد بينت ما هم عليه من حرص على عدم الخروج للجهاد فهم بذلك يتأخرون ويؤخرون المسلمين من بعدهم ، لذا جاء لفظ لبيبطن وما له من إيقاع ثقيل على اللسان ليوحي بصورة هؤلاء المنافقين وما هم عليه من تباطؤ في الاستجابة لداعي الجهاد ، ومن ثم تأخير غيرهم من المسلمين ، ولعلنا نرى طول الكلمة وكثرة التشديد فيها إذ إن حرف الطاء مشدد بالكسر والنون مشددة بالفتح قد جاء منسجماً مع الصورة الكلية التي يراد رسمها لحال هؤلاء المتباطئين (3) .

ومن البنية الإيقاعية في مشاهد يوم القيامة قوله تعالى : { وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ، وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ } (4) . فالفعل { يَصْطَرِخُونَ } لم يأت مصادفة ، بل جيء به استجابة لمقتضى الحال ، لأن المعنى لا يصوره . خير تصوير . إلا هذا الفعل دون غيره ، ولو جيء بفعل (يصرخون) مثلاً لم يؤد المعنى المراد ، وذلك من وجهين : الأول لأن الصراخ قد يتساوى فيه هؤلاء المعذبون مع غيرهم ، من جهة أخرى أن كل زيادة في المبني تؤدي إلى زيادة في المعنى كما يرى اللغويون وهذا ما نراه تماماً في الفعل { يَصْطَرِخُونَ } . (وذلك لأنه صراخ بجهد وشدة ، كصرخة حبلئ أسلمتها قبيلها ، وقد استعمل في الاستغاثة للدلالة على جهد المستغيث بصوته (5) ، فيخيل إليك جرسها الغليظ ، غلظ الصراخ المختلط المتجاوب من كل مكان ، المنبعث من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة ؛ كما تلقي إليك ظل الإهمال لهذا الاصطراخ الذي لا يجد من يهتم به أو يلبيه ، وتلمح من وراء ذلك كله صورة ذلك العذاب الغليظ الذي هم فيه يصطرخون .

الخاتمة:

في نهاية بحثنا هذا يمكننا أن نشير إلى أهم نتائجها التي لاحظناها من خلال تتبعنا لموضوع التصوير في القصص القرآني جمالياته وقيمه الفنية :

(2) ابن كثير ، أبي الفداء ، تفسير القرآن العظيم ، ج 1 ، ص 513 .

(3) يقول صاحب الكشف : " وفي { لبيبطن } جواب قسم محذوف تقديره (وإن منكم لمن أقسم بالله لبيبطن) والقسم وجوابه صلة من الضمير الراجع منها إليه ما استكن في لبيبطن ، والخطاب لعسكر رسول الله والمبطلون منهم المنافقون لأنهم كانوا يغزون معهم نفاقاً . ينظر : الزمخشري ، جار الله الكشف عن حقائق التنزيل ، ج 1 ، ص 541 .

(4) سورة فاطر ، الآيتين : 36 ، 37 .

(5) الزمخشري ، جار الله الكشف عن حقائق التنزيل ، ج 3 ، ص 310 .

- وجدنا أن التصوير في القصص القرآني وسيلة لمخاطبة حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية ، إذ يتمكن القارئ من تذوق الجمال الفني في كتاب الله تعالى ، فتكون نظرتة إليه كلاماً نفسياً لا يمكن بحال وصفه مستوفياً بالنطق، إنه أمر تقف دونه المعرفة ويدرك بالإحساس فقط

- كما نشير إلى أن القصة القرآنية قد زادت من سطوتها على المتلقي . سامعاً كان أم قارئاً . بظاهرة التصوير المبدع والذي يجعل من العمل القصصي أداة فعالة في التأثير ، نتيجة للحركة الحية النابعة من عملية التصوير الذي يشيع جواً من الحياة في ثنايا القصة ، وقد رأى الباحث أن التصوير في القصة القرآنية قد يكون بتصوير للمشاهد والمواقف ، أو تصوير العواطف والانفعالات ، أو بالتصوير بالإيقاع والجرس أو الإيحاء الصوتي ، كل ذلك بأسلوب فريد معجز لا نجده في غير القرآن مطلقاً .

- للتصوير الفني في القصص القرآني بمكوناته السابقة تماسك وقوة لإظهار الصورة وتشخيص المعاني وذلك بالتفرد في عرض الأحداث و إحياء المشاهد ، وتخييل العواطف والانفعالات، ورسم الشخصيات وهي ليست منفصلة عن بعضها ، و لكن قد يبرز أحدها في بعض المواقف فيعرف به .

- يتجلى التصوير الفني في القصص القرآني كذلك من خلال التخييل و التجسيد و الإخراج الفني ، لتتحد هذه المكونات لسرد المشاهد في القصة ، وأحياناً تتنوع فيطغى أحدها على الآخر وهي مظاهر فنية حديثة شملت و تجاوزت الأشكال البلاغية القديمة، من استعارة ، و كناية ، و تشبيه ، و أصبحت تصور العالم وكأنه جسد حي في حركة دائمة .

- إن المكون الأساسي في إخراج المواقف القرآنية هي الكلمة ، والتي يتم من خلالها استحضار المشهد إذ تبث فيه الحياة والحركة ، و قد تؤدي المشهد أكثر من كلمة في حجم آية ، أو من عدة آيات في حجم صورة ، أو من عدة صور، و هي صور فنية يتضافر في إخراجها اللغة و الدلالة و الإيقاع ، لتتشترك كلها لتقديم المشهد بحلة جليلة وتأثير قوي ؛ فالتصوير في القصص القرآني يقوم على الصور البيانية ، كما يقوم على صدق الحقائق والوقائع ، و في الحالتين يخرجهما إخراجاً فنياً مدهشاً يأسر القارئ والسامع ، ويملك منه العقل والوجدان ، كل ذلك بألفاظ إلهية ذات مدلولات معجزة ملؤها الإمتاع والتأثير .

- التصوير الفني هو أحد وجوه الإعجاز البياني في إطار الأسلوب القرآني البديع فالتصوير بالكلمات أداة تعديل بل تفوق الريشة الملونة ، والعدسة المشخصة ، فتؤثر في المتلقي وجدانياً وهو أسلوب تعبيرى تميز به القصص القرآني بشكل واضح .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم
- تفسير القرآن العظيم ، للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة - مصر ، الطبعة الثالثة ، 2002 م .
- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني ، مكتبة وهبة ، القاهرة - مصر ، الطبعة الأولى ، سنة 1966 م .
- دراسات جديدة في إعجاز القرآن ، عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني ، مكتبة وهبة القاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة 1996 م .
- القصة في القرآن . مقاصد الدين وقيم الفن ، محمد قطب ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، سنة 2002 م .
- قصص الأنبياء ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، دار الفكر ، بيروت - لبنان سنة 1989 م .
- قصص الأنبياء والمرسلين ، محمد متولي الشعراوي ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة - مصر د.ت .
- قصص القرآن ، محمد أحمد جاد المولى ، دار القلم العربي ، حلب - سوريا ، الطبعة الثانية ، سنة 1993 م
- قصص القرآن عظات وعبر ، سعيد عبد العظيم ، دار العقيدة للتراث ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة 2001 م .
- القصص القرآني إبحاره ونفحاته ، فضل حسن عباس ، دار الفرقان ، عمان - الأردن الطبعة الأولى ، سنة 1987 م .
- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، لأبي القاسم جار الله الزمخشري ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
- لباب النقول في أسباب النزول ، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، الطبعة الثانية ، 1388 هـ - 1969 م .
- لطائف الإشارات ، للإمام القشيري ، تحقيق : إبراهيم بيومي ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، د.ت .
- المعجزة الكبرى القرآن ، الشيخ محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي ، د.ت . قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس ، لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري الملقب بالثعلبي ، المكتبة الثقافية ، بيروت - لبنان ، د.ت .
- منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله ، ربيع بن الهادي المدخلي ، دار العصر للطباعة مصر ، سنة 2000 م .